الصحافة والطباعة

العربية فيه[1]

خليل ثابت بك
رئيس تحرير المقطم وعضو مجلس الشيوخ

كان لغوردون باشا مطبعة حجرية في الخرطوم فلما سقطت الخرطوم وخربت نقلت المطبعة الى أم درمان ولا تزال أدواتها أو ما سلم منها باقية في مخازن الحكومة هناك وكانت تطبع منشورات ونحوها وطبعت للمهدي والخليفة عبد الله مطبوعات دينية ومنشورات الخ . وفي عهد غوردون باشا كانت تطبع أوراق النقد التي كان غوردون باشا يتعامل بها (رجع) بسبب نفاد النقد المسكوك من ذهب وفضة

وبعد ما انشأنا مطبعة السودان في الخرطوم جاءنا رجل اسمه الحاج السيوفي وقال انه كان مجلداً في مطبعة غوردون وانتقل معها الى أم درمان وأرانا أمثلة من تجليده وهو التجليد الشرقي للصحف والكتب الدينة بالجلد الاحمر او الاسود المدموغ وعلب توضع فيها المجلدات فاستخدمناه في مطبعة السودان حيث تعلم التجليد المعروف بالافرنجي وكان أميناً في عمله مجتهداً ورقيقاً في عشرته ومهذباً في كلامه

أما جريدة السودان وهي أول جريدة نشرت في ذلك العهد جنوبي القاهرة فصدر العدد الاول منها في صيف ١٩٠٣ وشهد طبع اول عدد من أعدادها سيادة السيد علي المرغني باشا والميرالاي ستانتون بك مدير الخرطوم حينئذ وهو بجل الجنرال ستانتون قنصل بريطانيا العام الذي ابتاع في مصر أسهم المغفور له الخديوي اسماعيل في قنال السويس بأربعة ملايين جنيه لحساب الحكومة البريطانية فكانت صفقة من أربح الصفقات وقد لقيت الكولونل ستانتون بعد الحرب وكان محافظاً حينا والقسم الشمالي من فلسطين ثم اعتزل منصبه هذا احتجاجاً على كيفية تطبيق وعد بلفور . وكان معها المرحوم البكباشي مبروك فهمي (القواد في ما بعد) وكانوا يلقبونهُ بالجنرال

---

(١) من سلسلة مقالات في المقطم عن السودان من ٤٠ سنة لمناسبة رحلة رئيس الوزارة المصرية اليه

وكانت جريدة السودان تصدر في بدء الأمر في أربع صفحات بالعربية كمعظم صحف مصر في ذلك الحين ثم جعلت ست صفحات منها اثنتان بالانكليزية بطلب الحاكم العام لكي يطلع هو ورؤساء المصالح على ترجمة ما يكتب بالعربية من ملاحظات ونقد وقد وقف اصدارها منذ ما اضطررنا الى بيع مطبعة السودان لشركة انكليزية بطلب حكومة السودان

وهنا أقول ذكرى للحق والواقع ان الجنرال ونجت ومعظم معاونيه كانوا شديدي العناية برأي « الصحافة » في السودان

وجعل مكتب المخابرات في الخرطوم تلم مطبوعات لموافاة الجريدة بالاخبار الرسمية والرد على أسئلة التحرير ولم تكن ثمت رقابة ما على الجريدة ولا اعتراض على ما يكتب فيها ولو كان نقداً شديداً فاستطاعت ان توجه النظر الى اصلاحات شتى كالانتقال في ميناء الشلال في شهر النهار والنقل بسكة الحديد وكثير من الشؤون الاجتماعية والخاصة بالموظفين الخ

ومما لا ازال أذكره بهذا الصدد اني كنت ذاهباً يوماً ما الى قلم المطبوعات فرأيت في مورده (ميناء) الخرطوم براخر تشحن بها مدافع سريعة ومهمات وجنود فسألت مورانت بك رئيس المكتب فقال لي ان السردار أمره بأن لا يبوح لي بشيء وكان السردار عائداً من بحر الغزال بالنيل الابيض

وشق عليَّ هذا الكتمان وفي ذات اليوم كنت اقلب خارطة بحر الغزال واذا بصديق يدخل عليَّ. ولما رآني أحدق في الخارطة سألني فرويت له ما حدث فقال أتريد حقاً أن تعرف. فقلت نعم. فقال خذها من علم فلم أصدقهُ في بدء الأمر لأنهُ لم يكن ضابطاً ولا موظفاً. ثم سرد عليَّ حديثاً عن تجريد حملتين على بلاد النيام نيام ووصف طريقها وغايتها وقال ان العمل يدور سراً لكي لا يتصل خبره بالبلجيكيين في الانكلايف اللاسق لتلك البلاد

ونشرت الخبر مفصلاً في جريدة السودان وطالعهُ مكاتب الديلي مايل الندنية في القاهرة فأرسله بالتلغراف الى جريدته ونشرتهُ مفسوباً الى جريدة السودان. فلما اطلعت عليه وزارة الحربية في لندن هاج أقطابها وسألوا وزارة الخارجية كيف وصل الخبر الى الصحف فأرسلت هذه أن المورد كرومر وهذا ارسل تلغرافاً الى السر رجنلد ونجت يستفهم منه ولم يكن الحاكم العام قد قرأ الخبر في جريدة السودان لانه كان عند نشره لا يزال مسافراً بالنيل. فلما اطلع على الشكوى دهش واغتاظ وأرسل يدعوني بلسان مورانت بك فأبيت الذهاب اليه. وبعد ما كرر الدعوة مراراً قبلت بشرط ان لا يفاتحني بحكاية بحر الغزال هذه. ثم ذهبت فتلطف في المقابلة والحديث. وأخيراً حوَّل الحديث الى الموضوع الجوهري وأراد ان يعرف مصدر الخبر فابتسمت وقلت لهُ اني أستغرب سؤالاً كهذا من مدير سابق للمخابرات وان أصول الصناعة

تقضي بعدم افشاء الاسرار علاوة على ان مصلحة الصحافي في الكتمان لئلا ينكره ذو المعلومات ويجتنبوه . وأخيراً اتفقنا على ان لا تنشر اخبار عكرية الا بعد اطلاعه عليها وقال لقد كلفنا نشرك لهذا الخبر ألوفاً من الجنيهات واضطررنا الى ارجاع الحملة على غير جدوى

وقد قرأت في كتاب عربي صدر في مصر عن السودان ان حكومة كانت تمنح جريدة السودان اعانة مالية لهذا غير صحيح على الاطلاق وكل ما هنالك ان الحكومة اشتركت في نحو خمسين نسخة فيها وكانت تنشر فيها اعلاناتها لانها كانت الجريدة الوحيدة مع غازيتة حكومة السودان الرسمية . وقد كانت هذه الحقيقة مما مكّن جريدة السودان من الاحتفاظ بحريتها واستقلالها في ما كانت تعالج من شؤون البلاد

وكانت مطبعة السودان من أحدث المطابع في وادي النيل كله وقد جيء لها بأدوات وحروف من أحسن مصانع انكلترا وهي اول من أدخل نظام الحروف المعروف بنظام « الپوينت » القائم على القياس المتري . وكان السر رجلد وبحث يرسل شيوخ القبائل من زائري الخرطوم لمشاهدة مطبعة وكيفية العمل فيها

وفي ذات يوم جاءنا خمسة من المشايخ فطفنا بهم في أقسام المطبعة وكانت الجريدة تطبع . والظاهر ان واحداً منهم ارتاب في الأمر وظنّ أن الطبع ليس سوى مظاهرة وان الورق الذي يخرج مطبوعاً صفحتين من الجريدة مطبوع من قبل فصعد فجأة الى الدرجة التي يقف عليها عامل الطبع وقلب الورق الموضوع على خشب الآلة تحت يد العامل ولما تبين له ان هذا الورق ابيض غير مطبوع نزل وأشار الى زملائه بما يفسر بالايجاب !

وأول كتاب طبع في السودان بحروف معدنية كتاب « مسرات الحياة » للورد انبري الكاتب والمالي الانكليزي المعروف وقد ترجم الكتاب في قلم تحرير الجريدة ونشر فيها فصولاً ثم طبع على حدة وأهديت نسخة منهُ الى الحاكم العام فكتب عليها انها اول كتاب طبع في السودان وأمر بوضعها في مكاتب القصر

وبعد ذلك أخذت الصحف تنشر في الخرطوم بالعربية والانكليزية

وكان لرويتر مكاتب في الخرطوم اسمهُ المستر دافدسن وكان مدير البنك المصري فيها وللاجنشن غازيت مكاتب اسمهُ البرت سنجر وهو تاجر هنغاري

ولما زار الصحافيون المصريون السودان مع اللورد كرومر للاحتفال بفتح بور سودان وسكة حديد الاتبرة الى البحر الاحمر زاروا مطبعة السودان وأعجبوا بها . وقال المرحوم تادرس شنودة المنقادي بك صاحب جريدة مصر انها تضارع خيرة المطابع في مصر وكان هذا قبل ان يبنى لها بناؤها الخاص الكبير في ميدان عباس